عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2001)
السنة الثا...
الخميس...
كانون...



الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي

أصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف

تناول الدكتور نوري جعفر في هذا الكتاب- بالدرجة الاولى والاهم- ظاهرة الاصالة في شعر المتنبي. بمعنى ان الغرض الاساسي من الكتاب هو: إحاطة اللثام عن جانب واحد من جوانب شعر المتنبي المتعددة. أما الجوانب الاخرى المتعددة، فنظر اليها من ناحية ارتباطها بأصالة شعره، من اجل إعطاء القارئ صورة متكاملة عن المتنبي، ومنزلة شعره في الشعر العربي.

ان الاصالة في شعر المتنبي- كما يذهب الباحث- تعبر عن نفسها في الصور الشعرية الخيالية التي تبتعد عن الواقع المحسوس بعداً يكاد يكون مطلقاً في بعض الاحيان، او تمسخه احيانا اخرى.

وتظهر أصالة شعره في وصف الطبيعة (الحية والجامدة)، كما تظهر، ايضاً، في وصفه الاشخاص في حالة المدح والقدح على حد سواء، بصرف النظر عما اذا كان المتنبي محقا في ذلك ام غير محق فيه، وبصرف النظر، ايضاً، عما اذا كان الشخص الممدوح او المهجو يستحق ذلك او لا يستحقه بنظر الاخرين.

لقد ثبت للباحث انه كلما كان المتنبي عنيفاً في التعبير عن حبه او بغضه لهذا الشخص او ذلك.. كان عنفه هذا اكثر صدقاً واكثر دقة في التعبير عن مكوناته الفسلجية الخاصة وظروفه الاجتماعية. ويتجلى ذلك في الومضات او اللمحات الخاطفة المؤتلقة التي تنتشر في اثناء شعره، والتي تتناقض مع الواقع الحسي؛ ولكنها تثريه وترفعه الى مستوى اعلى من الاناقة، وتعيد صوغه بإبداع: وهي كثيرة ومثبوتة- كما يذهب الباحث- في اثناء موضوعاته الشعرية الاخرى. والصور الشعرية المترفة التي تعبر فيها اصالة شعر المتنبي عن نفسها (او التي هي اصالته بعبارة اخرى)، وجدها الباحث معبراً عنها (الا في حالة المدح والهجاء) بكلمات رقيقة مترفة انيقة لطيفة المزاج تنسجم معها.

لقد وجد الباحث ان المتنبي عبر عن بعض خلجات النفس البشرية تعبيراً عميقاً يتعذر على كثير من المختصين بعلم النفس ان يبلغوا شأوه. كما اشار ابو الطيب، في بعض لحظات الابتكار الى امور تتحدى الزمان والمكان، وان كانت مستمدة في الاصل من الواقع الذي يعيش فيه. ورسم الشاعر- في مدحه- صوراً شعرية مترفة تصلح لكل زمان ومكان: بعضها يغاير الطبيعة، الحية والجامدة، ولكنه ارق منها واكثر اناقة وصفاء. وبعض اخر يشوه الطبيعة نفسها ويمسخ حقائق الجغرافية وعلم الفلك وعلم الاحياء، غير انه يتصف بالجمال الفني الخلاب، ويعبر اصدق تعبير عن مشاعر صادقة في جميع الاحوال. وهذا يعني- كما يرى الباحث- كان صادقاً في كل ما قاله من شعر اصيل في اللحظة التي قالها فيها؛ ولكنه قد لا يكون محقاً في ذلك بمقاييس غيره.

ان الباحث يجزم بصدق المتنبي، ومرر ذلك- كما يذهب- الى مقوماته الفسلجية الخاصة بالدرجة الاولى.. ويتساءل الباحث: واذا كان هذا صحيحاً- وهو صحيح بنظره- فهل يجوز ان نطبق على سلوكه وشعره مقياساً موضوعياً خارجياً غريباً عن مقوماته الفسلجية؟ وعن ظروفه الاجتماعية ايضاً؟

يهتم الكتاب- كما اشرت- بظاهرة الاصالة في شعر المتنبي. والمتنبي في شعره- كما يذهب الدكتور نوري جعفر- كالطائر الصداح يغرد احياناً، وهنا تتجلى اصالة شعره. و(ينظم) احياناً، وهو ما لم يتحدث عنه الباحث إلا عرضاً، ويحلق في الفضاء الرحيب فيتوارى عن الانظار. ويكرر احياناً ما قاله غيره، وهو ما لا يعني الباحث امره إلا بمقدار اسهامه في تقديم صورة متكاملة عن شعره.

أي ان الباحث مع المتنبي في هذا الكتاب يعيش المناسبة التي يغرد فيها بصرف النظر عما اذا كانت مشاعره انذاك ايجابية او سلبية بالمقاييس المألوفة، وبغض النظر عما اذا كانت ألفاظه رشيقة مترفة (او نابية ثقيلة على السمع في حالة الهجاء)، وبصرف النظر، ايضاً، عما اذا كان ابو الطيب محقاً او غير محق في ما يقوله بنظر غيره؛ لانه كان صادقاً بنظر الباحث: لقد خلق المتنبي وابتكر، وولد في شعره، وهذا الذي يعني الباحث بالدرجة الاولى.

ويذهب المرحوم الى ان المتنبي عاش- من حيث هو مواطن- في مجتمع متخلف وبدائي بالمقاييس الحضارية الحديثة، حيث انتشرت انذاك ايديولوجيا الاقطاع والحكم الفردي المطلق، وان كان مجتمعاً تقدمياً بالنسبة لظروفه الزمانية والمكانية. وقد تكسب بالشعر بوصف الشعر اداة ارتزاق في ذلك الوقت، فكان من هذه الناحية- كغيره من المواطنين والشعراء- يداجي ويصانع.

وهذه جوانبه الاجتماعية المشتركة مع غيره. وقد عبر عن ذلك في شعره غير الاصيل، او في نظمه بعبارة اخرى، وفي ابياته الحكمية ايضاً (التي هي احتجاج غير مباشر على جوانب فساد مجتمعة)؛ غير ان المتنبي من حيث هو شاعر اصيل- بالمقاييس التي طبقها عليه الباحث- شخصية فذة فريدة متماسكة لا تداجي ولا تصانع حتى في مواقفها المتناقضة- بنظر غيره- التي يعبر عنها في تصرفاته او مواقفه بإزاء الامراء والوزراء والمتنفذين الذين عاصروه في حالته الايجابية والسلبية او في اثناء المدح والهجاء، والمتنبي صادق- كما يرى الباحث- في مشاعره العنيفة التي تنطوي على المبالغة في المدح على الايغال في الهجاء؛ لانه يعبر عن تلك المشاعر الحادة المرهفة، فيتجلى صادقاً واصيلاً في اللحظة التي يعيشها من دون خداع او مواربة.

قد يبدو المتنبي- من الخارج أول وهلة ومن الناحية السطحية- كأنه يداهن او يرائي عندما يطنب مثلا في مدح كافور في اعقاب مفارقته سيف الدولة على مضض؛ ولكن مقومات المتنبي الفسلجية لا تجيز وصفه بالمداهن. فقد ظن من دون وجه حق- بنظر الباحث- ان علاقته بكافور ستكون ابدية، وانه سوف يجد عند كافور ضالته المنشودة ويقضي بذلك على حياة التشرد والترحال.

وعندما تلاشت آماله تلك، وانطوت معه مشاعره المرتبطة بها وقف موقفه الآخر. ويتساءل الباحث اذا كان الامر كذلك فهل يجوز لدارسيه ان يطبقوا- عند الحكم عليه- مقاييس النقد غير الذاتية؟ يجيب: تلك مسألة تحتاج الى

لقد وجد الباحث ان المتنبي عبر عن بعض خلجات النفس البشرية تعبيراً عميقاً يتعذر على كثير من المختصين بعلم النفس ان يبلغوا شأوه. كما اشار ابو الطيب، في بعض لحظات الابتكار الى امور تتحدى الزمان والمكان، وان كانت مستمدة في الاصل من الواقع الذي يعيش فيه. ورسم الشاعر- في مدحه- صوراً شعرية مترفة تصلح لكل زمان ومكان: بعضها يغاير الطبيعة، الحية والجامدة.

مراقبون
من زمن التوهج
العدد (1883)
السنة الثامنة
الخميس (19)
كانون الاول 2010

بحث مستفيض وقد تثير نقاشاً حاداً بين المعنيين بدراسة الشعر.

ان الذي ذكر بصدد موقف المتنبي من كافور هو جانب من جوانب سلوكه الذي هو بنظر الباحث تعبير في الحالتين عن مشاعر جامحة عنيفة ايجابية وسلبية.

ان المتنبي كان صادقاً فيها لعوامل فسلجية تميزه: فقد اندفع ابو الطيب بمشاعره الايجابية الجياشة نحو كافور، كما اندفع ايضاً بمشاعره الجياشةالسلبية عنه. ولم يكن بمستطاعه ان يكون غير ذلك. ولا شك- عند الباحث- في ان كافور الذي خلع عليه ابو الطيب أرق الاوصاف هو غير كافور الذي اوسعه ذماً، وذلك راجع الى كون المتنبي الذي مدح كافورا هو غير المتنبي الذي هجاه. فلدينا، اذن، كافوران متنافران لا وجود لهما وجوداً متكاملاً إلا في مشاعر المتنبي المعبر عنها في شعره.

وهما يختلفان كل الاختلاف عن كافور الآخر الذي يصوره لنا المؤرخون. ولوكان كافور الذي صوره لنا المتنبي في مدحه موجوداً بالفعل، لتعزز عليه ان يهجوه بعد ذلك. ولو كان كافور كما صوره لنا المتنبي في هجائه، لما تردد هذه (الكافور) عن ملاحقة المتنبي والغدر به.

ولعل مجرد تفكير المتنبي وهو عند سيف الدولة بالسفر الى كافور- فضلاً عن شده الرحال نحوه وإلقائه عصا الترحال في الفسطاط- يشير الى ان كافورا هذا المقصود هو غير كافور المهجو. وما يصدق على موقف المتنبي من كافور يصدق ايضا على مواقفه من جميع الذين مدحهم او ذمهم وأظهرهم على غير حقيقتهم التي ذكر لنا المؤرخون طرفاً منها.

لقد ذهب الباحث الى ان المتنبي اتصف- من الناحية الفسلجية- بتطور عال في مراكزه المخية الحسية البصرية، وبتطور آخر مماثل في مراكزه الدماغية الواقع تحت المخ. وتطور المراكز المخية الحسية هو الاساس الجسمي (المادي) للاصالة في مجال الفن بما فيه الشعر، في حين ان تطور المراكز الدماغية التي تقع تحت المخ- وهو الذي يلازم كبار الفنانين والشعراء ايضاً- هو اساس علاقاتهم بالطبيعة والمجتمع التي تتسم بطابع الانفعالات او المشاعر العنيفة الايجابية والسلبية، كما انه عاش في مجتمع إقطاعي متناقض في مقاييسنا الحديثة، ومن وجهة نظره كذلك، فانعكس ذلك التناقض بأغرب اشكاله وأروع صوره الادبية في شعره، وصبغ جوانب كثيرة في سلوكه، لانه حال دون تحقيق مطامح الشاعر الفذ والانسان المرهف الحس، ورفع من شأن أناس دونه في الكفاية والخلق بمقاييس اهل ذلك الزمان وبمقاييسنا ايضاً.

وهذا هو الذي جعل أبا الطيب غريباً عن المجتمع الذي عاش فيه من حيث هو شاعر ضخم ومواطن أبي ذو مطامح انسانية تتحدى الزمان والمكان. وقد عبر عن غربته Alienation بالتعبير العلمي الحديث بقوله:

"أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود"

وحين يطنب المتنبي مثلاً في مدح سيف الدولة او كافور، إنما هو يطنب في مدح نفسه، ويشيد بامكاناته وأمانيه التي يجدها مجسدة في الممدوح الذي هو كالمرآة الصافية التي يرى صورته فيها: اي انه يطنب- بعبارة اخرى- في الجوانب الايجابية التقدمية التي يجدها في نفسه، وفي الحاكم الامثل في ذلك الزمان. وهذه نزعة سايكولوجية معروفة انتشرت في مطلع القرن العشرين تسمى (مذهب التأمل الباطني Introspection).

قال يخاطب سيف الدولة في اعقاب مرض ألمّ به:

"وان محالاً- اذ بك العيش- أن ارى وجسمك مقل وجسمي صالح"

وقال في معرض تهنئة كافور ببناء دار جديدة:

"وانا منك لا يهنئ عضو بالمسرات سائر الاعضاء
وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء"

ثم فطن الى اختلاف لون بشرة كافور الزنجي عن لون بشرته فاستدرك:

"ان في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء
انما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء"

لقد توزع الكتاب بين اربعة فصول.

كان الفصل الاول بعنوان: الاصالة، طبيعتها الفسلجية، وجذورها الاجتماعية.

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان: الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي.

وكان الفصل الثالث بعنوان: المتنبي المتناقض في سلوكه وشعره.

اما الفصل الاخير، فكان بعنوان: شعر المتنبي ومنزلته عند كبار الباحثين.

الإحالات:

١- لقاء مع الدكتور نوري جعفر، عن التكنولوجيا والثقافة المعاصرة، إعداد: حسب الله يحيى، مجلة الفيصل، عدد١٠٥، ربيع الاول ١٤٠٦ (كانون الاول ١٩٨٥)، ص٣٨.

٢- المكان نفسه.

٣- ينظر: المكان نفسه.

×برنامج: سيرة وذكريات. نسخة مسجلة موجودة في مكتبتي.

×× هكذا في الأصل، ولعلها (البصرة).

٤- دفتر الخدمة، النسخة الشخصية، ص١: ترجمة الحال- ص٢-٥: الوظائف التي تقلدها الموظف لدى الحكومة العراقية.

٥- شهادة وفاة صادرة من الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، اللجنة الشعبية للمرافق ببلدية طرابلس- مكتب السجل المدني، بتاريخ ١٠/١١/١٩٩١، محل الوفاة مستشفى صلاح الدين.

عرض لكتاب الأصالة في شعر المتنبي

تأليف د. نوري جعفر